

أضواء البيان

@ 80 @ بها ، وهم في أكابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية ، انتهى محل الغرض منه . .

ولا يخفى أن لهذه الآية الكريمة دالتين : دلالة بالمنطوق ، ودلالة بالمفهوم ، فقد دلّت بمنطوقها على أن من صفات عباد الرحمان ، أنهم إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها ، لم يكبّوا عليها في حال كونهم صمّاء عن سماع ما فيها من الحقّ ، وعمياناً عن إبصاره ، بل هم يكبّون عليها سامعين ما فيها من الحقّ مبصرين له . .

وهذا المعنى دلّت عليه آيات أخر من كتاب اللّٰه ؛ كقوله تعالى : { إِنْ زَمَّامُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللّٰهُ } ، ومعلوم أن من تليت عليه آيات هذا القرآن ، فزادته إيماناً أنه لم يخرّ عليها أصمّ أعمى ؛ وكقوله تعالى : { وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيْسُرُكُمْ زَادَتْهُ هَآذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ } ، وقوله تعالى : { مَّبِينِ اللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ مَّتَشَابَهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ } ، إلى غير ذلك من الآيات . .

وقد دلّت الآية المذكورة أيضاً بمفهومها أن الكفرة المخالفين ، لعباد الرحمان الموصوفين في هذه الآيات : إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صمّاء وعمياناً ، أي : لا يسمعون ما فيها من الحق ، ولا يبصرونه ، حتى كأنهم لم يسمعوها أصلاً . .

وهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه الآية الكريمة بمفهومها ، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب اللّٰه ؛ كقوله تعالى في سورة (لقمان) : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَرَأَىٰ مُمْسِكَ كَيْدَآءِ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن تَفِىٰ أُذُنَيْهِ وَقُرَآءٌ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ، وقوله تعالى في (الجاثية) : { وَيَلُ لِّكُلِّ أَفْوَآكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللّٰهِ تُلِيَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُمْسِكَ كَيْدَآءِ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } ، وقوله تعالى : { وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيْسُرُكُمْ زَادَتْهُ هَآذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ } ، إلى غير ذلك من الآيات . .

والظاهر : أن معنى خروار الكفار على الآيات ، في حال كونهم صمّاء وعمياناً ، هو إكبابهم على إنكارها والتكذيب بها ، خلافاً لما ذكره الزمخشري في (الكشاف) ، والصمّ في